العلاقة التكافلية بين التراث والمعاصرة:
اليابان كدراسة حالة

* الدكتور حسين ضيكة

مقدمة

لم يتمكن الوطن العربي حتى الآن - وعلى الرغم من الجهود المستمرة لعلمائه ومفكريه وباحثيه - من تطوير استراتيجية واضحة ومحددة للنهضة القومية، أو من صياغة مشروع قومي متكامل لتطبيقه الفعال من سكانه. واثبتت التجارب العلمية مدى ضخامة فرص الفوز المتوقعة لمحاكاة أو تقليد النموذج الغربي للتصنيع، وعند ملاحظة ذلك النموذج لظروف المجتمعات العربية. لذا فقد يكون من المناسب إعطاء قدر أكبر من الاهتمام البحثي لنموذج هولندي آخر تم تطبيقه بنجاح في ظل ظروف تاريخية وإجتماعية. قد تكون أقرب إلى ظروف المجتمعات العربية من تلك الظروف التي صاحبت تطبيق النموذج الغربي، ووفرت له مقومات النجاح. ذلك هو النموذج الياباني، ويمثل البحث الحالي محاولة مبدعة لإسهام في تحقيق هدف التوصل إلى فهم أكثر عمقاً للإمبراطورية، بفرض دراسة إمكانية الاستفادة من التجربة اليابانية، وذلك من خلال ترجمة الدخول على بعض المفاهيم النظرية والمتغيرات السسضيفية التي يميزها أن النموذج لدراسة تجربة التحديث اليابانية التي ما زالت - كما يوضح أحد الباحثين - تمثل نماذج وهاجسا استحوذت على اهتمام وعرفت المفكرين العرب منذ بداية هذا القرن.

أولا العنصر التاريخي

يمكن عام 1798 وهو عام رصبل الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت إلى مصر أحد العالم البازرة في تاريخ مصر الحديث. فقد كان ذلك التاريخ بمثابة الخط الفاصل الذي يحدد انشطة حربية معينة من تأريخ مصر والعالم العربي وبداية حقبة جديدة. وكانت عزلة العرب عن القارة الأوروبية من أهم الامكانيات التي انتجت بها تلك الحقبة المنتهية SIN لم تكن أهمها على الاطلاق. أما الحقبة الجديدة فإن من أهم ما تميزت به هو المواجهة المباشرة والتصادم العسكري والحضاري بين الشرق العربي والغرب الأوروبي، والذي لا يزال مستمراً إلى عصرنا الحالي.

* استاذ مساعد بجامعة الامارات العربية المتحدة - بالعين (سابقا)
كانت من أهم النتائج التي ترتبت على تلك الصدمة الحضارية أن أدرك العرب مدى الركود والتفاوت الذي أصابهم منذ آخر لقاء لهم مع أوروبا وانحسارهم عليها في الحرب الصليبية، ومدى التقدم الصناعي والتكنولوجي التي حققه الغرب منذ ذلك الحين. وفتحت الحالة الفرنسية عيونهم من أهل الشرق وأهل الغرب، على مدى سوء على اوضاع غير مألوف في حياة الشرق الآخر. فقد أدرك الشرق لأول مرة ما يصل إليه أوروبا من اتفاق في قانون الحرب، ومن إنجازات علمية كانت على تحضر عبد الرحمن الجبرتي، الذي عاصر الحالة الفرنسية - لاتسهب عقول أمثالنا. واردت العرب مدى الجهل والتأخر الذي أصاب الشرق الذي تجلي تحجر الفكر والاجتماع. في فصل قياداته بجميع مستوياتها في التصدي للتحدي الإبري بكتابة أخرى، أو حتى بواقعية أو عقلانية. فعلى مستوى القيادة السياسية مثل، كانت الفرنسية في البداية بارزة قنطارين من البارود. والشيكة كما يشرح الشام. أما قادة الفكر من علماء ووجال دين، الذين كان يبحثون الشعب الباهس ويسعون لأمرهم ونواحيهم، وپرسهم الحكيم كميغ شاكي. فقد كانوا يجمعون بالأوروبا القوية، والاجتماع، وغيره من الدعوات. قررت تلك القيادة الهائلة بعد هزيمة الفرنسا وقوة الغزاة الإنجليز، تركت الشعب ليواجه مصيره ومحنته بين قيادة سياسية أو دينية. ولم يشعر كبار رجال الدين الذين كانوا كا أبلغ مندوبي نابليون لدى طلبه لمقابلتهم قد، وقعت مهامهم تجاه الشعب السكين الذي كان في وجل وخوف على غيابهم. ولم يفزروا في هذه القيادة على البلاد إلا بعد أن تسلموا عدة ملكات تصلحهم، وتحددوا بالأمان، وتعرف إليهم نبا تحديد نابليون بضمان سلامتهم ورحبتهم.

لم يستقر نابليون طويلاً في مصر، واضطرت الحالة الفرنسية إلى الرخيل عنها بعد حوالي ثلاث سنوات فقط. ومن وصولها، وعلى أقل فشلها في إرساء دعائم الحكم الفرنسي بالبلاد. وفرغ الشعب المصري فرحًا كبيراً بخروج الفرنسيين الكفار. وعجود الإثاث والملالي المسلمين. في الأيام الأولى على الاقل. واعتقد العادون أن الأمور قد عادت بعدتهم إلى نصابها القديم. إلا أن الحذرات التي واجهها مجي الفرنسين لم ترقح برحيلهم وتوقعوا مشاعرهم الإصلاحية. فقد كان الشرع الذي أحدثه صدمة الغزو الفرنسي في الهيكل الاجتماعي، وفي السبق القوي السائد عندنا من العمق بحيث لم تكن مجرد عودة النظام الملكي القديم كافية لسد الفجوة بطريقة 태극ية. كانت الدراسات التي بُرِزت إلى السطح من جراء تلك الرئة العنيفة التي تعرض لها المجتمع من المعق، بيجيب مستكبر. من أهداف النتائج المهيمن السائد، والمسلمات التي كانت تعتبر من الحقائق البديهية التي لا مجال للشك في صحتها. وتواتر الأسئلة حول أسباب...
الضعف والتخلف الذي أصاب الشرق الذي كان مهدًا للحضارات، وسر تقدم أوروبا رفتهما، وكيفية التعامل مع الثقافة الغربية، وإمكانية الإصلاح إما عن طريق العلم أو عن طريق الدين، وكيفية التصرف تجاه النظام السياسي السائد، والخلافة الإسلامية، والثقافة الدينية، وال موقف الذي ينبغي اتخاذه من المبادئ العلمية والقيم الاجتماعية والفلسفية الأخرى التي أتى بها الغزو (18) وكان المناصب عن الدور الذي لعبته النظام الاجتماعي السائد في تخلف الشرق وتفقد الغرب، ومن طرق مقاريس التقدم والتخلف، ومن إمكانية وجود مقابل أو دلال أخرى بخلاف الدليل الذي كان ماثلا للمجتمع بقوة وعنف وهو مقياس القوة العسكرية.

قد يبدد لأول وهلة - وخصوصاً في ضوء المستوى التعليمي المتدهور لغالبية أفراد الشعب - أن تلك التساؤلات قد انتهى من أوساط الفتاة المثقفة في المجتمع المصري، وأن طرحها ومحاولة إيجاد الإجابات المناسبة لها، إنما يعود الفضل فيه للعلماء فقط. وأن خبرات الانتفاضة على الحضارة الغربية، أو رفضها والثور بالثورة، إنما تعكس تبادلًا ركية تنشأ بعداً عن الشارع المصري، وكممثلة للحوار الفكري بين العلماء ورجال الدين، أو نتيجة للمحاولات التي بذلها لتطوير مشروع قومي يستهدف مواجهة التحدي الخارجي، إلا أن الحقيقة - كما تظهر واضحة في الكتب العربية - هي أن تلك الانتفاضة لم تظهر في تلك الحقيقة كمفاعل لهفته مستقلة، أو معضلات ذاتية، بل برزت بصورة عريقة ظاهرة بين صفوف الشعب المصري بجميع فئاته، وعلى هيئة تصرفات فردية وأفكار سلوكية تعكس محاولات رجل الشارع للتعامل مع الأمر الواقع الذي وجدت فريوضاً عليه فحاول أن يتحسس الطرق إلى مواجهته، وأن يلتزم الخطوات العلمية التي تمكنه من التعامل مع الظروف العيشية التي نتجت من وجوده، وذلك بدون أي موعود أو توجيه فعال من قياداته التي خذلتها، وفرضت عليه العزلة والجهل، ثم فشلت بعد ذلك في حمايته، فكان البنديل الذي اختاره بعض الأفراد هو التحريض بالثرات، ومواجهة الغزو من خلال رفض كل ما جاءه الغزاة، إيماناً منهم بأن التراب - كما أكد بعض علماء الدين نابليون - بحث محتوياً على كل المعرف، بما في ذلك كيفية صناعة الدفاعين (19) بينما كان البنديل الذي اختاره البعض الآخر هو الانفتاح على الحضارة الفرنسية الوافدة وتقبل العادات الغربية مثل تبرر النساء، وتعليمهم بالشامسيين ومساحاتهم لهن في المراكب والقرى والقرى، والجبل، وحالة الزمن.
وقطر شعبها من ناحية أخرى (١٨١)، وعن مشاعره السلبية تجاه قياداتها الفكرية التي وصفها بأنها عازجة، وتبتكر في التقصب. (١٨٢) أما عن مشاعره تجاه عامة الشعب، فهناك من الدكات ما يشير إلى أنها كانت إنجابية إلى حد كبير، فقد وصف مصر بأنها *أم بلد في العالم* (١٨٣)، وكتب عنها الحكومة بباريس قائلاً: "إن هذه الأمة تختلف كل اختلاف عن الفكرية التي أخذناها عنها من رحالتنا. إنها آنة هادئة بأسلوب معترضة بنفسها (١٨٤) وكان يحلل كما - أدى في منافسة الآخرين في جزيرة سانت ميلان - بما يمكن عمله في هذا البلد الجميل خلال خمسين عامًا من الراحة والحكم الصالح." (١٨٥)

لم تتمكن المجتمعات العربية حتى يومنا هذا - وبعد مرور ما يقرب من قرنين على صدمة الفوز الفرنسي - من صياغة رؤية حاسمة على النتائج التي فرضتها نفسها على الساحة منذ عام ١٨٨٩، أو من الاتفاق على خطة للقيادة التنموية القائمة للاستقلال الديمocratique وتسعى نحو إنجازها، وتعامل في سبيل تحقيق أهدافها. ولازالت حتى الوقت الحاضر - كما يوضح أحد الكاتبين - *تشهد* في الثقافة العربية صراعًا بين قيم الانتخاب على الحضارات الأخرى وقيم النفع والمغامرة والمجاهدة - كرهة فعل - إلى الأصول كما يتجلى في نزاعات النفوذ والاقتصادية الدينية والراضوية (١٨٦). ولا زالت تحظى بعلاقة مناسبة لـ "جمع التفاح العربي القديم في حياتنا المعاصرة" (١٨٧)، وتساع نحو تحقيق هدف "الجمجم بين الأصلة والممارسة" (١٨٨)، بصورة تضمن لنا أن "يشتبك حاضرنا في ماضينا انسجامًا لا يعرقل سيرنا." (١٨٩)

مرت اليابان بعد حوالي نصف قرن من الفوز الفرنسي لمصر بتجربة مشابهة للتجربة المصرية، وذلك عندما وصلت سفن الأسطول الأمريكي بقيادة الكوماندر مايكل بيري إلى خليج بينو على الساحل الياباني عام ١٨٩٥، ووجدت اليابان نفسها تواجه السلع الغربي الحديث بأسلحة ما قبل الثورة الصناعية. (١٩٠) كانwagon تلك السفن في افتتاح الدفاع اليابانية وتدمر جدار العزلة التي كان حكم اليابان قد فرضهما على مجتمعهم بغرض حمايته من النفوذ الأجنبية وهو أوضح دليل على فشل تلك العزلة. فقد فعل نظام التورنجواي الابتعالي في الدفع إلى الغرب بقوة الفرصة، وانما كما فشل نظام النيل في الوطن الجديد. (١٩١) وبدأت تتولى الأمة في المجتمع حول أسباب الرفع والدفاع للفوز الفرنسي، وكان ذلك بِبتابة الصدمة الحضارية التي حزتَ المثلِ الياباني إلى التصدي لهذا التحدي الجديد. (١٩٢) وتعتبر الطرق للتعامل مع الغرب وثقافته الاجتماعية وإنجازاته العلمية والتكنولوجية. وعلى الرغم من التشابه الواضح بين الحدثين، إلا أن النتائج التي تتيقن على كل منهما قد جاءت مختلفة كل الاختلاف. فقد أفاق اليابان من صدمتها بسرعة، ونجمت في تطوير

ويتضح أن حركات الإصلاح التي أدركها منذ البداية أن التوصل إلى صيغة التوافق بين القديم والحديث، أو بين الثقافات الشرقية والغربية، يشكل القاعدة الأساسية لأي مشروع للنهضة القومية، وتبنيت منذ فترة مبكرة شعارات تعبر عن أهداف مشتركة للأمة الذين يعبر عنها الشعور الذي رفعته حركات الإصلاح اليابانية، إلا أن العالم العربي لم يتمكن بعد من ترجمة المبادئ والأهداف التي توجها بها الشعارات إلى خطط عمل محددة أو إلى خطوات واضحة تتفق على أهمية اتباعها للثقافة، وتمكن المجتمعات العربية من تنمية طاقاتها الفعلية وتحقيق هدف التقدم المنشود. ولا زالت مشكلة التفاعل التي تعب شعارات مثل شعار»الأمة والتجديد« (34) تشكل أشد المشاكل تعقيدا وآسرها حالة في العالم العربي.

فما هي الأسباب التي أدت إلى ذلك؟ وماذا سيكتمل اليابان في جميع المجالات على الرغم من أن عملية التحدي بدأت متأخرة نسبيا في اليابان مقارنة مع بدايات النهضة العربية؟ ولماذا تمت عملية التحدي والتغيير في الوطن العربي ولم تبلغ ما بلغه اليابان؟ هل ثمة عوامل أخرى متعددة في التجربة اليابانية؟ وهل تمثل التجربة اليابانية ظاهرة تاريخية قريدة ومتميزة ولا يمكن مقارنتها بالتجربة العربية؟ ولما هناك مجال للمقارنة وما هي أوجه التلاقى والتعارض بين التجريبيتين؟ (35).

لا شك في أن محاولة الإجابة على تلك الأسئلة ليست بالأمر البسيط. فنحن هنا بصدد عدة ظواهر معقدة ومشابكة، تداخل فيها مجموعات عديدة من التحولات التاريخية، الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتكنولوجية (36) وما يزيد الأمر تعقيداً أن صعوبة اللغة اليابانية قد أدت إلى ندرة الإبحارات المتوفرة للباحث العربي الذي يحاول البحث للإجابة عليها. وعلى الرغم من تلك الصعوبات فإن ذلك لا يقل من أهمية دراسة المجتمع الياباني.
ومحاولة التوصل إلى إجابات لمثل التساؤلات، وخاصة وأن التفوق الذي حققه التكنولوجيا اليابانية على التكنولوجيا الأوروبية والAmerica في العديد من المجالات قد لفت أنظار الباحثين الغربيين إلى أهمية دراسة المجتمع الياباني لتفوز على أسابيع ذلك التفوق وتحديد أكثر الوسائل ملاءمة لموجهته والغلب عليه، وبدأت نتيجة لذلك تتوفر لدينا كميات متزايدة من البحوث المكتوبة بلغات غير اللغة اليابانية، مما يسهل مهمة الباحث في الوطن العربي إلى حد كبير.

ثانياً: أمنية التجربة اليابانية للوطن العربي

إن أي مشروع للنهوضة القومية لا بد أن يستند أساساً على قاعدة متينة من السمات الثقافية الفريدة التي تميز بها المجتمع الذي يريد تطبيقاته. ذلك هو الخطاب الأولي، ونقطة البداية التي لا تسبيل إلى تخطيها، فليس بإمكان أي مجتمع أن يخفي الصعوبات المرتبطة بصياغة مشروع قومي للنهوضة عن طريق تقلع مشروع طبق بنجاح في مجتمع آخر، وما بلغت درجة التشابه بين المجتمعين. إذا فإن دراسة مشروع قومي حقق درجة كبيرة من النجاح لا ينطبق من قاعة بإمكانية العثور على نموذج يمكن نقله بحثاً، ولا يقصد به الإيجاب، يوجد مثل ذلك النموذج. إنما الهدف من الدراسة هو التعرف على أوجه الشبه والاختلاف، وعلى عوامل نجاح المشروع، وإمكانية تطبيق بعض تلك العوامل، وإعادة صياغتها بشكل يتناسب مع الهوية القومية والشخصية الثقافية للمجتمع الناقل. وتراجع أهمية دراسة التجربة اليابانية في التحديث إلى أربعة عوامل رئيسية هي:

1. أن تحديد المجتمع الياباني لم يجري كمفصلة لتطورات تاريخية، وإنجابية فريدة لا يمكن تكرارها، بل كرد فعل لظروف المحيط الغربي، وكتسئبة لحجة استبدات التصديق لذلك المحدد من خلال مجهودات متعددة وموضوعية تهدف إلى إحداث تغييرات شاملة في النمط الاجتماعي والانتقال به إلى مرحلة التغيير. وهو بذلك يشكل نموذجاً يمكن دراسته بفرض تحديد العوامل والآليات التي ساهمت في نجاحه، وإمكانية استخلاص بعض الدروس التي قد يكون بإمكاننا استخدامها من الوطن العربي.

بينما أن النهوضة العربية - وهي التميز الذي تركز عليه الكثير من الدراسات في حق التغيير الاجتماعي - لا تمثل خطة متعددة للتغيير، بل تعكس تطورات دينية وثقافية واجتماعية داخل، حيث بطريقة تلقائية وترجحية، وفي ظل ظروف تاريخية دولية فريدة لا يمكن تكرارها. ففساد الكنيسة في أوروبا الذي أفرز حركات الإصلاح البروتستانتية وما صاحبها من انتشار أخلاقيات العمل والانخراط التي أشار إليها في دراسته المعروفة (10)، وحركة التفوق وما تنتج عنها من قيم اجتماعية تفرض السلام للثابتة.

278
وتشجع العلوم والبحث العلمي، وتنص على الفصل بين الدولة والكنيسة، ووجود ظروف سمحت بتكبير المستعمِرات وتحريك غالية دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى مجرد مصدر للموارد الخام للخريطة وأسواق مضموسة للمستويات الصناعية، كانت كلها من العوامل التي ساهمت في توطيد دعم الثورة الصناعية في أوروبا. إذا فإن خصوصية التجارة الغربية في التصنيع وفرادة العوامل التي جعلتها تجربة ناجحة، تجعل من الصعب اتخاذًا كنموذج يمكن الإقامة به في الوطن العربي. بينما أن الظروف التي صادحت التجارة اليابانية كانت أقرب إلى ظروفنا في بعض جوانبها.
(ب) أن التجارة اليابانية - بالرغم من سمات التوريب المتعددة والتطوير الشامل لجميع جوانب الحياة في المجتمع التي تميزتها بها - لم تهدف إلى بث شجرة التراث اليابانية من جنوبها، أو اقتناؤها وزراعة شجرة أجنبيّة انتشال في مكانها. بل هو تغيير كان يهدف أولاً وقبل كل شيء إلى المحافظة على تلك الشجرة، وعلى ذات اليابانية، وعلى إحياء شجرة التراث هذه من خلال الخروج بها من حالة السكون والسردية إلى حالة التغير والدينامية، وجعل الثقافة المحلية أداة ينتفع بها المجتمع في مواجهة مشكلات العصر بدلاً من أن تكون طوقاً يمنعها من الحركة ومن الاستجابة للظروف المتفجرة ومقتضيات العصر وتحدياتها.
(ج) أن المجتمع الياباني قد تمكن من تحقيق كل ما سمي إلى تحقيقه من تجديد ثابث وتصنيع وتحديث شامل لجميع جوانب الحياة الاجتماعية في خلال فترة زمنية وجيزة للغاية.

ثالثاً: الإطار النظري للتحليل

بالرغم من بساطة السؤال الذي يطرحه البحث الحالي: لماذا تقدمت اليابان؟ إلا أن ذلك لا ينم بأي شكل من الأشكال على بساطة أو سهولة الإجابة عليه. لو فهمنا لنا أن نقطة البداية في محاولتنا البحث عن إجابة تكون في تضييق الدائرة التي تحتوي السؤال نفسه بشكل يزعم من احتمالات التوفيق في التوصل إلى إجابة مقدمة حتى إن لم تكون وافية أو شاملة، بإمكاننا تحقيق تلك المهمة من خلال وضع السؤال في قالب سوسيولوجي يربطه بأساليب علم الاجتماع، ويساعده على تحديد وتوضيح بعض المسائل والفرضيات التي بإمكانها الاستدلال إليها، وينبغي بخصوص فكر يكمن أن نحاول تجنبنا التوصل إلى إجابة لسؤالنا المطروح، أو على الأقل إلى تحديد الاتجاه الذي قد نقع فيه تلك الإجابة. يكون السؤال إذن - في ضوء الاعتبارات السابقة - هو: ما هي أهم المفتيات الاجتماعية التي يبدو أنها عقب ديراً بارزاً في نهجنا اليابان، ومكنت ذلك المجتمع من التصدي للتحدي الأجنبي الذي واجهه، والتعايش مع الظروف المتفجرة، وضمان إنجاز تجربة التحديث التي خاضها؟
هناك عدة مستويات ممكنة للتحليل في العلوم الاجتماعية التي تهدف دراسة الفعل الإنساني وفهم أشكال وتوزيع ظواهره المتعددة. من بين تلك المستويات:

(أ) مستوى التحليل الذي يميز به الدراسة في علم النفس، والذي يكون التركيز فيه على الشخص الفاعل بهدف تفهم إستجاباته الفردية لمؤثرات الخارجية، وتوضيح كيفية تأثير تلك المؤثرات على سلوكه.

(ب) المستوى التحليلي الذي يكون التركيز فيه على عملية التفاعل ذاتها، ويستهدف محاولة الربط بين الفرد وسلوكه وسلوكه في نطاق الجماعة من جانب، وبين السياق الاجتماعي الذي يتم فيه ذلك السلوك من جانب آخر، وذلك هو ما يتصور به عادة دراسات علم النفس الاجتماعي، وخاصة تلك التي تتناول منها بدراسة ديناميات الجماعة.

(ج) مستوى اتخاذ الجماعة الاجتماعية كوحدة التحليل الأساسية، والذي يぶり به تعريف دورها في الحقوق الاجتماعية، وتميزها بأبحاث علم العصابات.

(د) المستوى الذي يميز فيه الدراسات الأنثروبولوجية، والذي يبرز عادة في نطاق ما عرفا بارسونز بأنه الجانب الثقافي في الفعل الإنساني، ويتميز كل ما يشتمل عليه ذلك الجانب من رمز، وتداخل، وتبادل العناصر، وأنماط السلوك.

وأما أن اهتمامات البحث الحالي تتوجه أساسا نحو محاولة تحديد بعض الملامح الاجتماعية أو الثقافية البازة التي اتصلت بظاهرة التحديث اليابانية، فإن ذلك يضمن في دائرة مستويات الثالث والرابع. يمكننا بناء على ذلك إعادة صياغة سؤالنا بالصورة التالية:

ما هي أبرز الحقائق الاجتماعية، والزعامات البازة لكل من التسنين الاجتماعي والثقافي التي ارتبطت بشكل أو بآخر برسم خطة أو ينطوي، أو بضمان نجاح حركة التحديث اليابانية؟

تبدأ محاولتنا الإجابة على السؤال السابق باقترار صورة وجهة نظر مالتانسكي التابعة من النهج الاسترتيكي والتي ترى بأن الملاحظة يجب أن تشتمل نقطة البداية وتقلة النهاية في النظرية العقلية، وبالاستدلال إلى بعض المفاهيم التي يستند إليها منظور تحليل Generalized Paradigm المستند من نموذج التكوين التشكيلي Systems Analysis الذي يمكن إيجاده كوسيلة لتفهم بعض السمات التركيبية للإنسانة المعقدة وآليات تطويرها.

ثم بالارتباك على المسلمات التالية:

(أ) أن جميع عناصر الثقافة الاجتماعية تجمع بين مفاهيم بل تجمع كنائط وظروف وآليات تحقيقها، وأن العمليات الاجتماعية لا تتبع من فراغ بل تتجمع كنائط وظروف وآليات تحقيقها.
(ب) أن ضمان استمرارية أحد أنماط النشاط الإنساني إذا يكمن في ارتباطه إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بإشباع إحدى الحاجات الإنسانية. (4)

(ج) أن الحافز الأساسي وراء أجندة التفاعل الاجتماعي، والتي تشكل في مجموعة إطار النسق الثقافي السائد في المجتمع يكون دائما السعي نحو تحقيق أكبر قدر ممكن من الإشباع Optimization of Gratification.

(د) إن الواقع يمكن أن يتكون من أربعة عناصر رئيسية في المجتمع (النسق الاجتماعي)، والإنسان (النسق الشخصية)، والثقافة (النسق الثقافي)، والطبيعة (النسق العضوي). وأن كل عنصر من تلك العناصر يؤثر ويعتبر بما هي العناصر الأخرى. (50)

(ه) أن حالة التوازن بين مكانتن النسق في الحالة الطبيعية لكل واحد من تلك الإشكال. وأن تغير البيئة المحيطة بالنسب يؤدي إلى الخلل في هذا التوازن. وأن هدف العودة إلى حالة التوازن الأصلية لا يمكن تحقيقه إلا من خلال إحداث بعض التغييرات. أو التغييرات في واحد أو أكثر من مكانتين النسق على نحو يكل التكيف مع الظروف البيئية الجديدة، ويضمن الوفاء باحتياجات النسق في ظل الظروف التي خلقها تلك البيئة الجديدة. (65)

إذا افترضنا صحة تلك السلمات، واعتمدنا عليها كخيار للتفسير، فإنه يصبح لنا القول بأن صديمة الغزو الأجنبي كان هو التغيير الذي طرأ على الواقع وعلى بيئة النسق الاجتماعي الياباني. وأن برنامج التهذيب والتحديث كان هو التحديث أو التغيير الذي أجراه اليابانيون بالنسب ومكانتاته بهدف إعادة إلى حالة التوازن مرة أخرى. وأما أن تكون عملية التحديث كانت ناجحة، فمعنى ذلك أن تسق التكيف الذي يشكل أحد الأسس الفرعية والذي تم التغيير من خلالها قد استوفي شروط القدرة والحساسية تجاه البيئة المحيطة، واستمر على آليات أو ميكانيزمات استيعاب البيئة المتغيرة على نحو سليم، وتنست من معايير التكيفية لاختيار البديل الذي تتلاقى مع الأعراض الجديدة، ووسائل المحافظة على وضمان استمرارية طراز التكيف الناجحة. (65) وينص آخر يمكننا القول بأن النسقين الاجتماعي والثقافي اليابانيين قد تضمنا واحد أو أكثر من العوامل أو السمات التي مكنت المجتمع من

1. الاعتراف التغيير الحادث في البيئة واستيعاب العواقب المرتبطة عليه.
2. تقييم الوضع الجديد وتحديد البديل المتاح لواجهته.
3. اختيار أحد تلك البديل كالخيارية تضمن التكيف مع الظروف الجديدة.
4. ضمان حصول البديل المختار على قبول واسع بين صفوف عامة الشعب.
رابعة: عوامل النجاح في التموذج الياباني

1- عامل المحاكة ووضعه في ميكل الثقافة الاجتماعية اليابانية

يبدو لنا أن ميل المجتمع الياباني الدائم إلى محاكاة المجتمعات والثقافات الاجتماعية الأخرى واستعداده - بل حماسة - للنقل منها بدقة ومهارة هو واحد من أهم عناصر الثقافة الاجتماعية اليابانية ومن أبرز سماتها. وهو يشكل تبعاً لذلك نقطة البداية النقطية لمحاولة تقسيم المجتمع الياباني. فيما يؤكد أهمية المحاكاة كأحد العوامل الهامة للدراسة تكرار الإشارة إليها في الأبحاث التي تُنفَّذ بدراسة المجتمع الياباني وثقافته الاجتماعية، يغطي النظر من مصدر تلك الأبحاث أو جنسية الباحث الذي أجراها. فقد ركزت تلك الدراسة في دراسات قام بها كتّاب من مؤسسات عربية (44)، ودراسات قام بها كتّاب من الولايات المتحدة الأمريكية (45)، ودراسات قام بها كتّاب من أصل صيني (46)، ودراسات قام بها كتّاب من اليابان ذاتياً (47) بمساهمة بناية على ذلك أن تقترض أن المحاكاة كانت إحدى الوسائل الرئيسية التي ساهمت المجتمع الياباني إلى توظيفها لمواجهة الظروف المتغيرة والتحديات الخارجية ومحاولة التغلب عليها، وأنها قد لعبت دوراً في إنجاز الخمس مهارات الموضحة أعلاه.

لا يعني ذلك أن المحاكاة هي صنعة بيالتها المجتمع الياباني من المجتمعات الأخرى في العالم. فقد تنبهت العلوم الاجتماعية منذ فترة مبكرة في تاريخها إلى ظاهرة المحاكاة، وإلى الدور الهم الذي تلعبه في التغيير الاجتماعي بشكل عام. فقد أشار ابن خلدون منذ خمسة قرون مضت إلى أن المغول مولع آبوا باقتطاع القبائل في شعاعه، وزي، وتجنجه، وسائر أحواله، وعواده (48). وإحتملت الأبحاث المعاصرة بتدريس النور الذي يلعبه الانتشار الثقافي في التغيير الاجتماعي، بل إن بعض الدراسات CulturaltDiffusion، Acculturation تأتي بأن الانتشار الثقافي هو أهم مصدر من مصادر التغيير الاجتماعي على الإطلاق، (49) وأنه ليس بعيداً عن تسعين بالمائة من محتويات أي ثقافة إجتماعية لأي مجتمع بالعالم متولث عن ثقافات إجتماعية أخرى (50).

تكون المحاكاة عادة (ولكن ليس دائماً) إحدى تؤثر غزر مجتمع آخر وإتجاه الثقافة الاجتماعية للمجتمع الأخير كمعيار أو نموذج يقيم محاكاة. ويتميز أسلوب المحاكاة الياباني بعده صفات فريدة وجذابة باللمسة. فمن أهم تلك الصفات ما يلي:

272
(أ) أن الحساس الشديد الذي يبدؤه اليابانيون لمحاكاة المجتمعات الأخرى - والذي أشار إليه الدراسات السابقة الذكر - لمسك إستراتيجية جديدة لذا إلا بها الشعب الياباني عندما واجه التحدي الغربي في القرن التاسع عشر. بل هو صلة متصلة في ثقافته الاجتماعية، ولها جذور عميقة في تاريخه. وقد أشارت بعض الأبحاث التي عنية بدراسة المجتمع الياباني إلى حاجة معرفية للتدليل على استغلال ذلك المجتمع، ليس فقط للتعلم من المجتمعات الأجنبية واقتصاد الخضار منها - بل أيضاً على القلق بمهارة ردقة تدعو إلى الدمث. تلك الحادثة هي حالة غرق إحدى السفن البرغالية بالقرب من الساحل الياباني في عام 1642، ونجاح بعض بحاره تلك السفينة في النجاة بحياج وصول إلى شواطئ جزيرة تاناجاشيميا المنعزلة. كان رسم طاقم السفينة المنكوبة على شواطئ الجزيرة من الأحداث الفردية في تاريخ تلك الجزيرة. فقد كان ذلك هو أول اتصال يتم بين أوروبا وسكان الجزيرة التي لم يكن قد سبق لهم مقابلة أي من سكان تلك الظارة. قام اليابانيون بمساعدة البحارة وتقديم الطعام والشراب إليهم وأويلهم حتى لا ينسوا وسيلة لإعادتهم إلى بلدانهم، أو إخراج سفين أسطولهم. لم يكن لدى البحارة أية وسيلة للتعمير عن شكرهم، أو دعم الجميل سوي تقدير بعض الأسلحة النارية التي كانت بحوزتهم كهدية للسكان الذين لم يكن قد سبق لهم رؤية ذلك النوع من السلاح. وتصادف أن عاد أحد بحارة السفينة الغارقة إلى نفس الجزيرة بعد حوالي ثلاثين عاماً من مغادرته لها مع زملائه، فوجد - لشدة خيبة أن السكان لم يكتنوا بتسجيل الأساليب التي كان البحارة قد أعبروا عنهم، بل قاموا بتقليدهم والتعرف على أجزائها، ثم نسخ تلك الأجزاء بأصس درجات الدقة والإنفاق، وأن أهالي الجزيرة قد سلحوا أنفسهم بحوالي عشرين ألف قطعة سلاح تآمر تم تصنيعها بالكامل محلياً.

(ب) أن المحاكاة لم تجني على حال من الأحوال - كما قد يبدو إلى الالتباس - كنتيجة لشعور اليابانيون بالدونية تجاه المجتمعات الأخرى، أو تعريفهم بأن عقدة نفس بشؤها الياباني تجاه الثقافات الاجتماعية الأجنبية. بل إن العكس تماما هو الصحيح. الياباني يشعر بقدر من الإعتزاز بثقافته ومجتمعه، قد تصل درجة اعتزازه إلى الاستعجال على الثقافات الأخرى، بل إلى حد العنصرية في بعض الحالات، وتعد معاملة المجتمع الياباني للأقلية الكورية المقيمة فيه من أبرز الأمثلة الدالة على ذلك الاستعجال.

(ج) أن أسلوب المحاكاة الياباني لا يقيم على مجرد التقليل الآخرين بدون أسس أو ضوابط أو أهداف. هناك الكثير من الشواهد التي توجي بأن عمليات التشويق والالتماس من المجتمعات الأجنبية قد اتخذت دائما بقدر كبير من الانفتاحية، وذلك على الرغم من أنها
لم تتحصر في دائرة صغيرة بل استمرت تشتمل جميع نواحي الحياة الاجتماعية. فقد
كان اليابانيون لا نقل إلا ما يناسبه من نظم أو مؤسسات أو أفكار (17)
(د) أن جميع المناهج الاجتماعية والأโนاع الثقافية المتصلة من ثقافات أخرى تخضع في
البداية، ولئن يتبناها المجتمع، لسلسلة طويلة من عمليات التغيير، والتحديث،
والتطوير. تخرج جميع الأنماط والمناهج المستدامة بعد تعرضها للكثير من العمليات مكسوة
بثبوت ياباني خالص، ويشكل يتلائي إمكانية التضارب أو التنافس بين عناصرها
وعناصر الثقافة المحلية، ويضمن تحقيق الأهداف الموجبة من أقتنبها (18).

كانت الحضارة الصينية المجاورة محل اهتمام اليابان في الماضي. فقد كانت الصين
من أكثر المجتمعات تقدما في العالم وكان لها مركز حضاري مرفوع. إرتكز على قاعدة متينة
من الإنجازات في شتى نواحي الصناعة والعلم والمعرفة والثقافة. استنادا اليابان كثيرا من
الثوار التي انتظروا تلك الحضارة المزدهرة ونقلت العديد من الأنماط الثقافية الصينية، بمختلف
اختيارها. فبالرغم من أن الصين لم تتم فرزها اليابان، إلا أن سعة نطاق الإستعارة والتقل
الثقافي من الصين هو من أعمق ما تميزته بالفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والثاني
عشر (14). بدأ التقليد من الصين بصورة متميزة ومحدودة في عهد الأمير شوتوكو الذي قام
بإرسال بعثة لدراسة إنجازات الحضارة الصينية وكيفية الاستغلال منها، ولنقل اليابان العديد
من المؤسسات الاجتماعية الصينية والنظم السياسية والاقتصادية، والتعليمية، والعلمية (18).

تتمت اليابان الديانة اليونانية والفلسفة الكونفوشيوسية في فترة مبكرة من تاريخها (17). وعلى
الرغم من أن اليونانية قد جاءت إلى اليابان عن طريق كوريا في القرن السادس (18)، إلا أن
حذوها في الثقافة الاجتماعية اليابانية قد تمت من خلال منظور تفاعلي، أو فتيل تفاعلي
صيني (19) نقل اليابان بعد ذلك نظام تأسيس الإمبراطوري للإدارة في عام 141 (18) كما قامت
باقتباس الكثير من حروف الكتابة الصينية (20)، والآداب والأدب والفنون كفن الخط (21)، والقيم الاجتماعية كقيم احتضان السلطة (22)، وطاعة
الأبوين (23). وعلى الرغم من امتداد عملية النقل هذه ومتمادها لتشمل جميع جوانب المجتمع
وبثقافته، إلا أنها لم تشكل مجرد عملية نسخ. فقد خضعت جميع العناصر المنقلة - وبدون
العديد من الإصلاح أو التغيير والتحديث والتطوير، يُثبت صياغتها بصيغة يابانية، وصولا إلى
فمالها ملء الياباني أصبح يتلاؤم مع خصوصية الثقافة اليابانية، وخصوصيات المجتمع الياباني. فحتى
لأصل رأس الأصول المشترك بين الصين واليابان (24)، والتي يرجع العلماء أن مصدرها
الأصلي كان في الصين قد أصبحت تفاصيلها المذوافة في اليابان تعكس الشخصية اليابانية
وتغير عن نسقها القيمي (25).
استمرت اليابان مفتوحة على الحضارة الصينية طوال فترة ازدهار تلك الحضارة، ورغم ذلك، بدأت تتغير المعتقدات الجيوسياسية بشكل جدري في القرن السادس عشر. كان العامل الجديد الذي أدى إلى تلك التغيير هو بداية خروج أوروبا من العصور المظلمة التي استمرت ما يقرب من عشرة قرون، ودخلاها إلى عصر التجارة والأكتشافات البحرية. كان من بين علامات تغيير الظروف الدولية رحلة السفن التجارية الإسبانية والهولندية والبرتغالية إلى شرقي آسيا، حيث قام الاستعمار الذي بدأ بالتعاون التجارية وتوطيد التفوفر الأوروبي.

لم يكن من الممكن إنشاء المراكز التجارية على السواحل الآسيوية غالبًا عن ذنم القيادة اليابانية التي لاحظت التزايد السريع للفتوحات الفرنسية والألمانية على السواحل الصينية القريبة، فقد أحسست بالخطر الخارجي الذي يعده استقلالها وحريةها في تهيئة مصيرها بالكيفية التي تقصدها. وامتلكت اليابان تمس النفوذ لحماية نفسها من خطر الوقوع في يد الأطراف الأوروبية. كانت سياسة العزلة عن العالم الخارجي هي البديل الذي اختارتته القيادة اليابانية لحمايتها من الخطر الجدي، فعمرت سلسلة من القوانين الصارمة التي استهدفت إصدار ستار محكم من العزلة على المجتمع الياباني. من بين أمثلة تلك القوانين قانون صدر عام 1876 يقضي على مغادرة جميع السفارات الأجنبية بمكانية استخدامها في الجزيرة اليابانية، وقانون آخر صدر عام 1879 يمنع أي أجانب من السفر إلى الخارج، وقانون آخر صدر عام 1879 يمنع أي أجانب من السفر إلى الخارج. كانت صلة اليابان الوحيدة بالعالم الخارجي في تلك الفترة تتمحور في ذلك العهد البسيط من التجارة الأجنبية.

على الرغم من أن شعار "بريد التكنولوجيا والبريد الإيديولوجي" لم يكن من الشعارات التي رفعتها اليابان أثناء ذلك، وأنه شعار معمر يرفعه بعض الكتاب في الوطن العربي اليوم، إلا أن الشعار هو أدق وصف للسياسة اليابانية خلال تلك الفترة. فقد كان الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه نظام التوسع الحاكم في اليابان في تلك الفترة هو الاستفادة من بعض ما أنتجته الصناعة الأوروبية بشكل غير منظم على العزة الثقافية.

في الاتجاه من أن النظام الحاكم لم يكن يحارب الأفكار المستورة ويتحم على علماء اليابان، دراسة العلوم الغربية، ويخضع بالإعداد على أن اليابان تصل بالغرب أو يبنيني آن في عاداته أو طريقة لعبه أو عقائده الدينية، إلا أنه كان يسمح بدراسة الكتب الطبية اليابانية، ويرجع ذلك من حظر دخول جميع السلع الأجنبية إلى البلاد، إلا أن الأسلحة الأوروبية كانت مستقلة عن ذلك الحظر.
استمرت مرحلة العزلة التي اتسمت بالجود والرغبة في جميع المنتجات الثقافية المستوردة أكثر من قرنين من الزمان. وكان فشل الدفاعات اليابانية في منع الأسطول الأمريكي من الرسو في خليج ييدو هو الحدث الذي حقق تأثيره في المجتمع. فقد تأكد للاليابان خطورة العزلة بفضلها كسياسة دفاعية، عندما وجدت نفسها تواجه أسلحة القرن الثامن عشر الحديثة بأسلحة القرن السابع عشر العتيقة.

كان سلاح الانتفاج على المجتمعات المقدمة وممارساتها، والذي أثبت الخبرة التاريخية فعاليته في الماضي، هو السلاح الرئيسي الذي عادت اليابان إلى استعماله لمواجهة التحدي الغربي الذي تمثل في وصول الأسطول الأمريكي. بدأ على عجز الدفاعات الساحلية، وعلى مدى الضغط العسكري، وتأخير العلمي الذي أصاب المجتمع الياباني خلال سنوات عزلة عن العالم الخارجي. قامت اليابان، بعد أقل من خمسة عشر عامًا من وصول السفن الأمريكية إلى مياهها الإقليمية بختام نظام التوكوكاوا، بعد أن تأكد لها عجز سياسة العزلة والجود، ومقابلة التغيير، ومعاداة كل ما هو أجنبى من نظم أو أفكار، عن حماية المجتمع الياباني من أخطار الغزو الخارجي.

انتقلت مسؤولية القيادة على المجتمع إلى نظام الدير الإصلاحي عام 1868، بدأ النظام الجديد على الفور في تنفيذ خطة تغيير شاملة. وعضا المجتمع الياباني ينتقل من الغرب بنفس الدورة من الهيكل، وتقنية، والتفاعل الذي يتزامن مع مكان قليل. وأحدثت القيادة تغييرات شاملة في المجتمع ونظامه وممارساته، وبدأت ما لا حصر له من المؤسسات الاجتماعية، والأنشطة الثقافية، والثقافة السياسية، والاقتصادية، والفنون، والتعليمية، وإصلاح الإدارة الغربية. وعلى الرغم من اتساع نطاق حركة التغيير في ذلك، وامتلاذها لتشمل جميع نواحي الحياة اليومية، إلا أنها لم تؤثر إلى ذوبان الديانة الفردية للثقافة اليابانية، أو تحولها إلى نسخة مصورة للثقافات الأوروبية التي انتقلت إليها المجتمع بكل مستوياتها. ذلك أن التغيير - على الرغم من شموليته واسعة مداه - لم يعمر في أي وقت من الأوقات، وأي مرحلة من المراحل في أي جانب لهجر التراث الياباني القديم وإحلال التراث الغربي محله. إنما العكس تمامًا هو الصحيح. فقد كان الهدف الرئيسي لحركة الديانة الإسلامية منذ البداية هو الحفاظ على الثقافة اليابانية عن طريق تجديدها وتحديثها، بأسلوب انتقائي مدروس ومتوارز يشكل يضمن صبائنه واستمراريتها وبيها في ظل الظروف المتغيرة. فقام النظام الإصلاحي مثالاً لهجر التقاليد العسكرية المروية التي كانت تطغي طبقة الساموراي حتى اكتناز شرف الخدمة العسكرية وتعلم الفنون الجوية، وطبق نظام التجنيد الإجباري المتبع في أوروبا آنذاك، وإستبدال الأزياء العسكرية التقليدية بأزياء أوروبية حديثة. بالمقارنة قام نفس ذلك النظام
التقدم بإعادة إحياء بعض العادات والمعتقدات الدينية القديمة التي كانت شائعة قبل تبنى الديانة البوذية في القرن السادس الميلادي. والтехнологية المعمارية التي وُضِعت على أيدى الأمة اليابانية للإمبراطور الذي يعتبر ابن الشمس. (8) ومن هنا توضع تلك المواد أن عملية التغريب والمحاكاة أوروبية قد تمت داخل نفس النظام الذي احتوى عملية محاكاة الصين في القرن السابع. قد كانت جميع التلاميذ الاجتماعي والاقتصادي الثقافي الغربي المستوردة تخصم للتغيير والتحديث والتطوير بيئة صناعية يابانية وصينية في قالب يتناسب مع الظروف المحلية ومع خصوصيات المجتمع الياباني وتشريع الاجتماعي.

وقد أن التفوقي العسكري على الصين في القرن السابع من القرن العشرين كان أكبر دليل على مدى مهارة اليابان في محاكاة الحضارة الصينية. فإن هزيمة روسيا في الحرب التي جرت بينها وبين اليابان خلال عامي 1904 و1905 (8) - ويعتبر أقل من نصف قرن فقط من بداية تنفيذ البرنامج الإصلاحي - كان أكبر دليل على مدى مهارة اليابان في محاكاة أوروبا، وعلى درجة نجاح الخطة التحفيزية التي طبقتها النظام السياسي الجديد. وأدأ توقيع معاهدة التحالف مع بريطانيا عام 1906، وقيام الحكومة البريطانية بمنح أرفع أوضاعاتها الإمبراطورية الليجى، من الأحداث التي دلت على الوضع الجديد الذي بدأت تحتل اليابان بين دول العالم المتقدمة، وعلى معاملة النقل الذي بدأت تتكاثرها من الدول الأوروبية التي اضطررت إلى الاعتراف بها كعضو مساوا لها في نادي القوى العظمى. (11)

ويبرز بعض علماء التاريخ - مثل أرنولد ترينبي - أن برنامج التغريب الشامل الذي طبقته اليابان كان له مزية أخرى إلى جانب المزية الواضحة وهي مزية ضمان قيتها العسكرية. فقد كان الحرس الظهري الشديد الذي أثبتت اليابان - وهي ضحية التوتر - لتبني جميع أنظمة وأنشطة الغرب، مصدر حيرة لذلك العهد وساعد على مطاردتها للساحة وعلى حماية اليابان من. (8)

استمرت اليابان في تشجيعها المستمر حتى بداية الحرب العالمية الثانية. وكان التزام في تلك الحرب، والنزاع للضرب بالثوم، والصراخ الشامل الذي لحق بالجزء اليابانية، ثم عززهم وعزمها للإستيلاء الأمريكي في أخطر الحرب التي واجهتها اليابان في تاريخها الطويل. واجه اليابان تلك الحدة بنفس السلاح الذي خدمها جيدا في الماضي. فلم ترفض الدستور الجديد الذي فرضه الغزاة عليها، والذي كان مستندًا إلى الدستور الأمريكي، ولم تخرج من ميدان المواجهة بالقرار إلى الماضي أو بالذنب في مطلع الغزاة. بل أعطى الهيكل الثقافي الجديد وأقامته على أسس محلية، وطبقت النظام السياسي الاجتماعي الذي فرض عليها بأسلوبها الثقافي الغربي. وقبلت جميع التغييرات الأخرى التي فرضت عليها، وبدأت مرحلة جديدة من المحاكاة، وينتقد المجتمع الأمريكي، وينقد، وينقد، وينتقد.
كانت البداية متواضعة، وكان تقليد الصناعة الأوروبية والأمريكية بكل دقة وإمكاني هو أقصى ما تستطيع الصناعة المحلية أن تصل إلى تحقيقه في تلك المرحلة. وقد يذكر بعض قراء هذه السطر - كمثال تلك البداية المتواضعة - أعلام الحبر النموذج من ماركة باركر التي كانت اليابان تصدرها إلى الأسواق العربية في الخمسينات، وتبيعها بقليل الأسعار، ثم الانتقال بسرعة من تلك المرحلة إلى مراحل أكثر تطورا وثورة في مجال صناعة السلع الأكثر تعقيدا كالسيارات والأجهزة والمعدات الإلكترونية. أصبحت السلع اليابانية اليوم تناقل السلع الأمريكية على كل السطويات، وتتفوق عليها حتى في السوق الداخلية الأمريكية. وتم استيعاب المعرفة الفنية العربية والتكنولوجيا المتقدمة خلال كل تلك المراحل، بالاعتماد على الاستراتيجية، وهي عملية تفكك السلع والمنتجات الصناعية، للتعريف على مكوناتها وتحديد مواصفات المواد الأولية الداخلية في ذلك التكوين.

2 - عامل الوفاق وأسس العلاقات الاجتماعية في المجتمع الياباني

يتبين مما نقدم أن المحاكاة هي أحد النهج المتصل في الثقافة الاجتماعية اليابانية، وأنها من بين الشخصيات المهمة التي تساهم على إنهاء تلك الثقافة سمة المرونة اللازمة للتغيير مع ظروف التغير. وأن عملية تقلل من التطورات والتكيفيات والتحديات الأمريكية، وهي العملية التي شكلت الأساس الذي أقيمت عليه المهمة اليابانية الحديثة لم يكن وليد الصدفة، بل أنبثق من اتجاه تواصل في الثقافة الاجتماعية اليابانية للتغلب على المجتمعات المتقدمة عليها، بدون خوف من التغير الثقافي أو شعور بالضعف بجانب الافكار والتفاعلات المستدامة. ومع الحرص الشديد. في نفس الوقت على صيغة ما ينقل بصورة خاصة مستمرة من تراثها الثقافي الفريد.

وعلى الرغم من أهمية تلك الدور الحورى الذي لعبته المحاكاة كأحد آليات التكيف في النسق الاجتماعي الياباني إلا أنها - وشأنها في ذلك شأن أي ظاهرة إجتماعية أخرى - ظاهرة تتسم بالتعقيد والتشابك، ويتطلب نجاحها وجود عوامل أخرى متعددة، والوقاية بمتطلبات مختلفة، وتوفر ظروف معينة.

وكان التجانس الاجتماعي والشعور بالأستقرار والاستمرارية من بين تلك العوامل التي ساعدت في توفير النافذة المطلوب، ليس فقط للبدء في عملية النقل على نطاق واسع من المجتمعات الأخرى، بل أيضا لتمكين تلك العملية بنجاح. فما لا شك فيه أن البقاء والاستمرارية للنَسق الاجتماعي يتطلب توفير شرط الرودية الممكن تحقيقه من خلال عمليات التغيير الاجتماعي، إلا أن ذلك البقاء يتطلب أيضا عوامل تحقيق للنَسق ظروف الثبات والاستقرار والشعور بالديمومة. فلذا فإن النَجاح في توليف صياغة تجمع بين مجموعين متضادات، هما الثبات والتغيير، أو الحركة والسكون، هو أحد المتطلبات الأساسية لفنان النَسق.
يتحقق شرط الثبات للنسق الياباني من خلال عدة سبيلا، من بينها الوفاق الاجتماعي الذي يستند إلى قاعدة راسخة من ثبات الهيئة ووضوح أسس العلاقات الاجتماعية بين أعضاء المجتمع. فالهوية - كأحد الأدوات في المجتمع - تشكل إحدى القرارات السينكوبولوجية التي يتركز عليها الإنسان في مواجهة التغيير في البيئة المحيطة به، وهي أحد عناصر التواصل والاستمرارية التي تحقق للفرد شرط الشؤور بالثقة بنفسه وثقافته الاجتماعية وتراثه، وتمكّنه بناء على ذلك من تقبل التغيرات الاجتماعية التي لا بد من إجرائها لضمان دومه ذاك التراث ولذلك الثقافة، وتعتبر الهوية - كما يوضح أحد الباحثين - من عناصر فعّالة روحية وحضارية جماعية، تعزى الفرد إحساسا بالانتماء إلى جسم أكبر، وتعطى لديه الولاء والاعتراف بهذا الجسم الأكبر، وتمكن المجتمع من القيام ببعض الوظائف الرئيسية كالدفاع عن أرضه ومن ذاته، وتوفير الحاجات الأساسية لعظامه (11). فبالإحساس أعماض المجتمع بالتوجه والاندماج في جسم واحد هو من بين شروط النجاح في عملية تجاهل وتحديد طريق منتشر للسير والتبغا ذلك شرط - كما تعلم من خبرتنا في الوطن العربي - لا يمكن أن تأخذ كامرأ مفروض منه، أو كمحتية تحقق في كل مجتمع بطريقة تقليدية، ويفضل النظر عن الظروف والتطورات التاريخية، فالوطن العربي يعاني - كما أظهرت بعض الأبحاث الإمبرايركية - (10) من مشكلة صعبة بوجه الهوية وتشتت نفسها بين الهويات المتانسقة مثل الهوية الدينية، الهوية الإقليمية، الهوية المحلية، الهوية القبلية (9). وبالرغم من الجهود المستمرة التي تمكنها أبحاث مثل "الصحوة الإسلامية والعاطفة والحياة" (79)، و"الصحوة الإسلامية والعاطفة والعمرانة" (89)، ومثل "الصحوة الإسلامية والعاطفة والعمرانة" (99)، ومثل "الصحوة الإسلامية والعاطفة والعمرانة" (109) إلا أن مشكلة الهوية لا تزال إحدى أزمات المجتمع العربي ومشكلاتها التي تعقد المحاولات التي تستهدف تحقيق "الاندماج السياسي - للتكوينات الإثني" التي يحتمها الإمبرايركية (110).

وللقارن فإن المجتمع الياباني يتمتع بميزة وضوح الرؤية في ذلك المجال. فالهوية اليابانية تتبنى من إحساس توقي بالانتماء إلى قبيلة واحدة كبيرة (111)، وترتبط ارتباط ثقليا بالمفاهيم الإمبراطورية التقليدية القائمة هناك، والتي كانت كحركة المبادي الإصلاحية قد تمتدت عناصرها على وتوجهها، لتضفي مشكلة فضند الصناعي بين ماضي المجتمع وحاضره (112)، وإدراكها منها مهمتها في تكوين الثقافة اليابانية، وبادرت كحاجة تساعد على ضمان ظروف الوفاق الاستمرار الاجتماعي وهو يشكل - بناء على ذلك - أحد العناصر التي تتمكن منها أطراف تلك المعادلة الناجحة التي تجمع بين التغير والثبات في أن واحد. فهناك قناعة عميقة لدى أفراد الشعب الياباني بجميع فئاتهم وطبقاتهم - كما أوضح بعض الأبحاث - (110) بالإنسام إلى أسرة واحدة، وبأن أسرة الإمبراطور ابن الشهير في حسب التقاليد الاجتماعية والدينية الموروثة - الأصل الذي تتفجر منه جميع الأسر اليابانية. أي أن الأسرة الإمبراطورية هي الوعود الرئيسي الذي تسببه في الهويات الفرعية الهمة. يتضمن
ذلك الوعاء قدرا من الهوية الإقليمية، ومن الهوية الدينية، ومن الهوية القومية، ومن الهوية السياسية، ومن الهوية الأثرية، ومن الهوية الآسيوية. ويشكل أنصار تلك الهويات في غالب واحد دون التنافس بينها، ويساهم على تحقيقها، ويغذي الإحساس بالانتماء، وبالتماسك الاجتماعي والاستمرارية الثقافية. يشكل ذلك الشعور القوي بالانتماء والتجانس والارتباك واحداً من أهم مصادر الاستقرار الذي يتميز به المجتمع، والذين يسود فيه، ومن أبرز سمات تلك المزيج المتزامن بين القديم والجديد في الثقافة اليابانية.

يساعد ذلك الإحساس بثبات الهوية وعدم غموضها على تقوية التزام عضو المجتمع بالحفاظ على الروابط التي تربطه بالجماعة، والحفاظ على الأسس التي تحكم علاقاته مع بقية أعضاء الجماعة. وتحدد وضعه ومكانته في إطار هيكلياً يتألف، وقد أشارت بعض الدراسات الغربية التي عنيت بثبات المجتمع الياباني العامل إلى تقدمه الصناعي، وإلى تطبيقه للنظام الديمقراطي الياباني، وإلى ظاهرة انتشار نظام الأسرة النووية فيه. ولبعض الياباني الشديد يتقلب ومكانته كل ما هو غربي، من مسالى وأدبيات إلى موسى وتقويم وأداب، وفسر كل تلك الظواهر على أساس أنها من دلالات التغيير السينمائي الاجتماعي الشامل للمجتمع. إلا أن الحقيقة التي يوضحها البحث المعمق هي أن ذلك التغيير الواضح في المشهد الخارجي لا يعني بغير ذلك التغيير缓慢 في الأسس الداخلية للبناء الاجتماعي.

ويبدو في بعض الأحيان أن هذا التغيير الطفيف الذي تم في مجال العلاقات الاجتماعية والضوابط التي تحكم تلك العلاقات، vite النماذج الاجتماعية التقليدية بين الأب والابن وبين الزوجة، وبين السيد والتابع، وبين الرئيس والمؤرخ، وبين الأسرة الإمبراطورية ورعاياها، لا تتغير كثيراً. والتفاوت الذي شهدته المجتمع الياباني بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لم يكن على درجة كبيرة من الفروع في مفاصل عائلة بناءة بتأثيرات في شخصية الفرد نتيجة قيامه بخلق مسلسل بشري الكثيرون، بعد انتهاء الفصل الشمالي، واستبداله باساليب جديدة تتفق مع جو المربع المعتدل.

ويتضح هذا من الأدلة التي يشير - كما توضح نفس الباحثة - إلى أن النظام الاجتماعي والسياسي السائد في اليابان اليوم هو نفس تلك النظام التي ورثها من عهد التوكو، وأن التغيرات التي حدثت في عهد الحدي إصلاحات لم تكن تغيرات جذرية هيكلية. فقد كان عدم اليابان بأسس النظام التقليدي القائم على المجتمع عنده، والإعتماد عليه كرسيلة للتجديد، وบาท تطبيقات الإصلاحات من خلالها، هو أحد أسباب نجاح الحركة التحديثية. وان وسيلة السفر نفسها، على حد تعبير الكاتبة، لم تغير كثيراً بل ما تغير هو نوعية السفر ولتجاه السفر. ذلك هو المغزى الحقيقي لشعار حركة الإصلاح، والترجمة العملية للمعاري التي ينشئها.
يتضمنا انظار الثالث، الذي يعبر عنه مصطلح Wakin-yosai، والمعرفة الغربية. (111) فسر نجاح اليابان في تحقيق معجزاتها الاقتصادية لا يكون في هجر القيم التقليدية وتبني القيم الاجتماعية التي قامت عليها الثورة الصناعية في أوروبا، بل في نجاحها في تطوير قيمها الذاتية والحافظة على تلك الأسس العامة في هيئة ثانية التي تنظم العلاقات الاجتماعية وتضم استمراريتها (112)، وفي صيانة النسق القيمي المركزي الذي كان يسود اليابان قبل بداية الحركة التنظيمية.

بعد الولادة للمجتمعات المختلفة التي ينتهي إليها الفرد، والتفاعل في خدمتها، والاستعداد للتضحية والبذل في سبيل حماية مصالحها والمحافظة على ديناميكتها هي أهم القيم الاجتماعية اليابانية، إن لم يكن أهمها على الإطلاق. (113) وكانت مجموعة الأسس ثلاثية التي تحدد بيئة مكاناً كل فرد داخل الجماعة الاجتماعية وتعرف واجباتها وحقوقها تجاه أعضائها، وتضمن تحقيق هدف التنافس والإنسجام بين أعضاء الجماعة الاجتماعية الواحدة، الذي يشكل أحد الأعمدة العامة التي شيد على أساسها هيلم النسق القيمي الياباني. (114)

وقد فرضت الديمقراطية كأساس تنظيم العلاقات بين الأفراد، على اليابان بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية. (115) ولم تتفين اليابان موقفها المستمر من ذلك المفهوم الجديد بل تقليته، إلا أنها لم تتفين بضرورة الخبرية أو نشأة المستور، بل صبغته بصبغة يابانية خاصية، وأعتمد على كنها الرسائل التي تساعد على رسم معالم الطريق المؤدي إلى تحقيق ما تقتضيه النزاهات العليا التي ترد صيانتها، لذا فإن الديمقراطية في المجتمع الياباني لا تعبر بمفهومها الغربي ولا تبدو ككونها الواجهة أو الشكل الخارجي الذي يحجب النظام التقليدي للعلاقات الاجتماعية (116). فطبق التنظيم الديمقراطي بالمفهوم الغربي يستلزم الإلتزام بمبدأ المساواة التامة بين الأعضاء، ويتطلب إعطاء الحرية مبادلة لكل عضو في الجماعة بغض رأي بك ما يترأسي لي من القوة أو الحرف أو الشوق. ويعون آية حساسيات أو ممارسات. ويشع برفع الالتقاط في الرأي، وعلى تحديد الشعار الشخصي، وإتخاذ المناقشة الموضوعية الصريحة كثيرو، لصهر الآراء المتضاربة، وكوسيلة التوصل إلى موقف جماعي موحد تتفق غالبية أعضاء الجماعة على الالتزام به.

يتناسب ذلك الأسلوب مع الأسس التي تحكم العلاقات في اليابان. فالشيوعي الهادي وليس النصيحة الحاد هو أساس إتخاذ القرارات لديهم. (117) وقواعد السلوك في اليابان لتسهم بتشريذ الجماعة الواحدة وانقسامها إلى فرق متعارضة متضاربة تدخل في مناقشات عنيفة مع بعضها البعض (118)، ولا تسهم بالأساس بالتنظيم الهمري للجماعة الذي يحدد بكل نقة وضع وضوح وضع كل عضو فيه على سلمها الهمري، والذي تعبر عنها كلمة onjo-shugi التي تعني
الأولى، ترتكز إلى الوضع المتميز الذي يحتله الرئيس داخل الجماعة الاجتماعية. (121) فقيلة طاعة السلطة والاحترام بها هي أحدى القيم الهاوية في المجتمع، ويعبر عنها مثل الشعبي الذي يتنص كل ياباني بأن يقف في ظل شجرة كبيرة (121) وعلي الرغم من أن الجماعة تشجع كل من يطيعها - مهما بلغ من اتخاذ سياساته - بالتعبير عن آرائه. (122) إلا أنها لا تسمح بعرض تلك الآراء بشكل يطرح مشاعر رئيس الجموعة. (123) وعلى الرغم أيضًا من ذلك، بخصوص السيد. يحتله رئيس الجماعة إلا أن قواعد السلك السائدة تحرم عليه القيام بفرض آرائه على بيئة الأعضاء. (124) فالديمقراطية المشهورة اليابانية تعني تحقيق التالف والانسجام بين أعضاء الجماعة الواحدة من خلال تطبيق إستراتيجية ما يسمى بـ "العدد الأقصى التشارك" (125) التي تهدف إلى التعرف على رأى الغالبية من أعضاء الجماعة وإجباره موقفها الموحد. مثلي تم تحقيق تلك المهمة بتلقي الأغلبية دون إبداء أي تحفظات. (126) لعلها يقدر السلك الذي تحرم على الفرد معارضة الاتجاه السائد، أو إتخاذ موقف مفرط في بعض الأحيان، أو استخدام كلمة مثل "لا أوافق"، وتتعلق نبذ كل من يتحفظ على رأى الغالبية، ويفتقد بذلك مشاعر الوفاق بين أعضاء الجماعة الواحدة. (127) وهناك مثل شعبي يعبر عن أهمية تلك القيم الجماعية. (128) ويفتول أن "المستقبل الذي تبرز رأسه يضرب بالمطرقة". (129)

خاتمة ونتائج

بينما - بناء على ما تقدم - أن دراسة التجربة اليابانية في التحديث تعطى على تسليط الأضواء على بعض الحقائق الهامة التي يسبق إيجازها على النحو التالي:

1 - أن الدراسة المعتمدة لأي تجربة تحديثية ناجحة، والاستفادة منها هو أحد الاستراتيجيات التي قد تساهم في تحقيق هدف بحيرة نموذج ملحو أصول للتحديث في الوطن العربي.

2 - أن النموذج الغربي في التحديث لا يمثل النموذج الأول الذي لا بديل له، ولمس من أسبابه لأني معتقد يوجد حلقة تخلفية والانتقال إلى مرحلة التقدم والتصنيع.

3 - أن الأصول - بناء على ما تقدم - هي الشروط الأول أساسية الذي لا يمكن أن يستوفي النموذج التحديثي الناجح للمجتمع الذي ينشد التقدم والتجديد. وأنه لا يوجد برنامج جاهز يمكنه من مجتمع آخر تطبيقه بنجاح، فحتى إذا استمرت إرادة أعضاء مجتمع ما على نقل النموذج الغربي بمختلفه وتطبيقه محليا. فإن استحالة تكرار الظروف الداخلية والعوامل الخارجية التي ساعدت على إنجازه تجعل هذّل البديل غير الناجح. وعلى الرغم من ذلك النجاح المتقطع النظير الذي حققه النموذج الياباني.
لا أنه ينبغي أن نبتقي من خصوصية الظروف الاجتماعية اليابانية، وانتزع على قاعدة صلبية من السمات الفريدة للثقافة الاجتماعية اليابانية وتسقيمهم القيم، مما يجعل استيراده إلى مجتمع آخر غير وارد. يكون الخيار بين الأصالة والحداثة - بناء على ذلك - خياراً وهما زائداً لا وجود له في الواقع الإمبريكي، حيث أنه حتى إذا افترضنا استعداد أعضاء المجتمع للتفاني عن شرط الأصالة، فإن النموذج المنقول من مجتمع آخر لن يحقق النتائج المرجوة من تطبيقه.

4 - أنه من بين الدروس الهامة التي يمكننا أن نستخلصها من النموذج الياباني هو أن الأصالة لا تتطلب الانفصال ورفض الاستفادة بما أنتجته الحضارات الأخرى، من علم، أو تكنولوجيا، أو مفاهيم، أو نظم، أو مؤسسات إجتماعية، ولا تتضمن العودة إلى الوراء ومحاولة اكتساب على أساس ملحوظ، مع اكتسابه بالإتفاق في مجتمعات أخرى.

ه - أن الاكتشاف على المجتمعات المتقدمة والاستفادة من خبراتها في جميع المجالات هو أسرع طريق - إن لم يكن الطريق الوحيد في ظل الظروف الدولية المعاصرة - للتقدم والتحديث، وإن عملية تصنيف النظم والأشكال والقواعد إلى مستقر ومحل، بهدف محاولة فرضها، وإستثمار ما هو أجنبي منها هي - على أساس الاحتمالات - مضيفة لوقت طويل، وتبديد لطاقة محدودة - وعلى أساس الاحتمالات - تهيمن على خوف من الديانة والحركة والتجديد، ومن شعر بالثقل والذوبان تجاه الثقافات الاجتماعية الأخرى، وأن يكون للفقدان الثقة بالنفس، وبإمكانية الحفاظ على الهوية الذاتية الفريدة في ظروف التحدي الحضاري.
المراجع والمواضيع

1. جاسم محمد عبد الله، "العرب وتجربة التحديات اليابانية في المعركة العربي، السنة الحادية عشرة، العدد مائة,
   وثيقة مشر، يناير 1989، ص 37.


3. المصدر السابق، ص 31.

4. السجل مفصل ومخطط لتفاصيل الحياة اليومية في مصر خلال تلك المقاولات التاريخية انظر: عبد الرحمن الجبر،

5. حسين أحمد أمين، مصدر سابق، ص 21.


7. حسين أحمد أمين، مصدر سابق، ص 11.

8. المصدر السابق، ص 12.

9. المصدر السابق، ص 17.

10. المصدر السابق، ص 22.

11. المصدر السابق، ص 27.

12. المصدر السابق، ص 31.

13. المصدر السابق، ص 31.

14. المصدر السابق، ص 32.

15. المصدر السابق، ص 36.

16. المصدر السابق، ص 38.

17. استعراض موسع لاصحاب الفنانين في مصر انظر المصدر السابق، ص 50-59.

18. خليل بركات، المجتمع العربي المعاصر، بعث استثمار، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1984، ص 298.

19. حسين أحمد أمين، مصدر سابق، ص 25.

20. المصدر السابق، ص 26.

21. المصدر السابق، ص 31.

22. المصدر السابق، ص 36.

23. المصدر السابق، ص 45.

24. المصدر السابق، ص 46.

25. المصدر السابق، ص 54.

26. خليل بركات، مصدر سابق، ص 254.

27. زكي تجيب محمود، "تجديد الفكر العربي، القاهرة: دار الشرق، 1984، ص 20.


29. زكي تجيب محمود، ثقافتنا في مواجهة العصر، القاهرة: دار الشرق، 1984، ص 15.


(80) محمد عبد الجباري، "العصر الإسلامي والثقافة المسنودة"، الصحراء الإسلامية وهموم الوطن العربي، عمان: مكتبة النهار، 1988.
(81) حسن الترابي، "العصر الإسلامي والثقافة العربية"، الصحراء الإسلامية وهموم الوطن العربي، عمان: مكتبة النهار، 1988.
(82) عزيز جرادة، "العصر الإسلامي والثقافة العربية"، الصحراء الإسلامية وهموم الوطن العربي، عمان: مكتبة النهار، 1988.


Christopher (165)

Hsu (166)

Nakane (167)

Hsu (168)

Nakane (169)


Christopher (178)

Hsu (179)

Nakane (180)